الفصل الأول

عالم ذو أصوات عديدة (ولكنها أقل مما كانت)

A World of Many (Fewer) Voices

"لقد أتيت متأخراً لتتعلم لغتنا، كان عليك أن تأتي مبكراً. نحن اليوم أناس معدودون".

مارتا كونجارييفا، ولدت عام ١٩٣٠م، أحد المتحدثين بلغة التوفا.

لا يزال آخر المتحدثين لنصف لغات العالم تقريباً على قيد الحياة اليوم [١]، وحين تتقدم بهم السن ويقضون نحبهم، سوف تصمت أصواتهم. سوف يختار أطفالهم وأحفادهم، وبأغلبية ساحقة، ألا يتعلموا لغة الأجداد أو أن يجدوا من يحرمهم فرصة تعلمها. لم تدوَّن معظم لغات العالم اليوم في أي مكان ولم توصف وصفاً علميًّا، وإنَّا لا ندري، ابتداءً، ماهية ما نفقده، على الصعيد العلمي، والإنساني، والمستقبلي، حينما تموت اللغات. سوف يتآكل وينتهي إلى طي النسيان صرح ضخم من المعرفة الإنسانية شيدته أعداد لا تحصى من عقول البشر بعد جهد مضنٍ وعبرآلاف السنين.

في عام ٢٠٠١ م، وفي الوقت الذي انتهت فيه الألفية الثانية، كانت توجد ٦٩١٢ لغة إنسانية متمايزة يتحدثها البشر في كل أنحاء العالم [٢]، ويتوقع اللغويون اليوم أنه مع نهاية القرن الحادى والعشرين، وبحلول عام ٢١٠١ م، لن يتبقى من لغات البشر سوى نصف هذا العدد. ولكن، كيف أدركنا ذلك؟ تنطلق هذه المعلومات من حقائق ديموجرافية صارمة ومن تعاقب الأزمان. ولهذه المشكلة بُعْدٌ إنسانيٌّ،

وسوف ننظر في هذا الكتاب نظرة دقيقة إلى حياة أواخر المتحدثين باللغات وخبراتهم وآرائهم.

في عام ٢٠٠٥، كان يوجد ٢٠٤ لغة كاملة لها مجتمعات تتحدثها، ويبلغ عدد الأفراد في كل منها أقل من عشرة، ويعد هذا (سيناريو) مثيراً للرعب. وهناك ٣٤٤ لغة أخرى يتحدثها ما بين ١٠ إلى ٩٩ فرداً. وفي حين تتقدم السن بالمتحدثين بتلك اللغات ويقضون نحبهم فسوف تنحدر لغاتهم لتدخل ضمن لغات المجتمعات السكانية التي يقل عدد المتحدثين بها عن عشرة أفراد. وتوجد أكثر من ٥٤٨ لغة يبلغ عدد المتحدثين بكل منها أقل من ٩٩، وتمثل هذه اللغات تقريباً عُشر لغات العالم، وتكاد كلها تواجه خطر الاندثار المحقق. لا يمكن أن نتوقع أن تنتقل هذه اللغات إلى أجيال أخرى من المتحدثين أو تكتسب متحدثين آخرين بها إلا في أبعد الاحتمالات. وقد تجد اللغات الأكبر من تلك اللغات السابقة، فوق ذلك، مثل لغة النافاهو، والتي يتحدثها ١٥٠٠٠٠ متحدث، نفسها في خطر، مما يوحي بأن الحجم السكاني وحده ليس ضماناً للأمان من الضياع[٣].

ما هو الشعور الذي ينتابنا حينما نتكلم لغة يبلغ عدد متحدثيها عشرة أفراد أو أقل؟ إن هذا الأمر يعني الشعور بالعزلة لأناس مثل فاسيا جابوف Vasya Gabov – ذلك السيبيري البالغ من العمر ٥٤ عاماً، وهو أصغر متحدث طلق للغة الأُس Ös الأصلية، وتتضاءل الفرصة في التحدث بلغته الأصلية- إنه يعني أن تكون مهمشاً، في الظل، يحيط بك متحدثون آخرون بلغة مهيمنة ولا يعترفون بلغتك. يغلب على المتحدثين بتلك اللغات في مثل هذه المواقف نسيان الكلمات والتعبيرات الاصطلاحية وقواعد النحو لعدم ممارسة اللغة.

الشكل رقم (١,١). يورى وآنا بايداشيف **Yuri and Anna Baydashev** وأنا في وسط سيبيريا عام ٢٠٠٣م. يمثل الزوجان بايداشيف آخر بيت نعرفه يتحدث فيه الزوجان إلى بعضهما لغة الأس Ös التي لم يبق من متحدثيها سوى ٣٠ متحدثاً. بحلول عام ٢٠٠٥، كان يوري قد أصيب بفقد واضح في السمع مما حد من قدرته على الاتصال. تصوير: جريجورى اندرسون، يوليو ٢٠٠٣ م.

حين طلب اللغويون الزائرون من أهل لغة الأس التحدث إليهم أملاً في توثيق اللغة كانوا يتتعتعون بحثاً عن الكلمات. يتحدث لغة الأس الآن أقل من ٣٠ فرداً ولا تستخدم هذه اللغة في داخل المنزل إلا بين أفراد عائلة واحدة فقط. يقيم كل متحدثي الأس الآخرين في بيوت تكون فيها اللغة الروسية هي الوسيط اللغوي المستخدم في معظم المحادثات. في مثل هذا الموقف الذي يتشابه فيه واقع متحدثي الآلاف من اللغات الصغرى في كافة أنحاء العالم يصبح من الصعب بمكان أن يسمعك أحدٌ، أويتذكرك أحد، أو يراك أحد.

وفق المعدل الحالي نكون بصدد فقدان لغة كل عشرة أيام، ومن المؤكد في

المستقبل القريب أن تكون لغة الأس واحدة من تلك اللغات. بالنظر إلى متوسط عمر الفرد في روسيا فإننا نتوقع أن تندثر لغة الأس بحلول عام ٢٠١٥. يتسارع فقدان اللغات في كافة أنحاء المعمورة، ولست بحاجة للذهاب إلى منطقة الأمازون أو سيبيريا لمعاينة الاندثار؛ إنه يحدث حولنا من كل جانب. عند كتابة هذا الكتاب، أجلس في مكتبي في الحرم الجامعي لسوارثمور كوليدج Swarthmore College بالقرب من فيلادلفيا على بعد ٥٠٠ ياردة من ضفاف كرَم كريك Crum Creek "جدول كرم" لقد كان هذا "الكرم"، كما يسميه السكان المحليون هنا، ذات يوم، ملاذاً لقبيلة أوكيهوكنج لينابي Okehocking Lenape الهندية. لقد كان يتحدث لغة تلك القبيلة، لغة اللينابي، عشرات من القبائل والجماعات التي تسكن وادي ديلاوير في نيو جيرسي وبنسلفانيا. لقد تم لاحقا إعادة توطين القبيلة قسرا في أوكلاهوما والتي يحكى أنه كان بها خمسة متحدثين على قيد الحياة في ١٩٩٦م. في هذا الوقت كان يمكن أن توجه السؤال "ktalënixsi hàch?" " هل تتحدث اللينابي؟" وتجد من يجيبك "e-e" "نعم" [٤]. ولكن بحلول عام ٢٠٠٤م، لم يبق متحدث واحد بهذه اللغة من بين سكان القبيلة البالغ عددهم ١٠,٥٠٠ فرد[٥]. تندثر اللغات بوتيرة متسارعة سواءً في عقر دارنا أو في العالم بأسره.

الاندثار بالتزاحم

إن اللغات لا "تموت" أو "تنقرض" بالمعنى الحرفي للكلمة؛ إذ إنها ليست كائنات حية، بل تندثر بفعل مزاحمة اللغات الكبرى لها؛ فالألسنة الصغيرة يهجرها متحدثوها الذين يهجرون استخدامها من أجل لغة أتم سيادة أو أعلى مكانة أو أكثر ألفة. بما أننا لا نمتلك مصطلحاً فنياً أنسب لوصف من يهجرون أنظمة معرفية معقدة مثل اللغات، فإننا نعتمد على الاستعارات بتسمية هذا الموقف بـ "موت اللغة" أو

"التحول اللغوي " language shift أو اللغات المهددة بالانقراض threatened languages أو "الانقراض" extinction أو "الكلمات الأخيرة" last words أو "الأصوات المندثرة" " vanishing voices[٦]. ويفضل البعض القول بأن اللغات مثل التونيكا Tunica ، والتي كان يتحدثها الأمريكيون الأصليون في ألاباما أو لغة وامبانواج Wampanoag التي كانت تتحدثها ذات يوم قبيلة وامبانواج في كيب كد Cape Cod ، هي لغات"نائمة" dormant ويمكن "إيقاظها" may be awakened أو استعادتها retrieved أو إحياؤها revived في المستقبل المأمول[٧].

الشكل رقم (١,٢). على اليسار السيد سوكرا ماجهي Sukra Majhi، متحدث شاب للغة الريمو Remo ، أحد لغات المونداMunda في الهند التي لا يتحدثها سوى متحدثون قلائل يعيشون في قرى ريفية قليلة في الهند. على اليمين الطفلة ميتولا سيرا Mitula Sira إحدى أفراد قبيلة البارينجي Parengi والتي لا تتكلم لغة والديها ولا أجدادها ولكن تتحدث لغة الأوريا Oriya ، اللغة السائدة في الإقليم. الصورتان التقطهما مارك إجلنتون Mark Eglinton في ٢٠٠٥ ، إهداء من معهد الألسنة الحية للغات المهددة بخطر الانقراض Living tongues Institute for Endangered Languages.

إذا أردنا أن نوسع من هذه الاستعارة البيولوجية، فإننا نجد أن اختفاء اللغات لا يشبه انقراض الأنواع إلا من الناحية السطحية فحسب؛ فالأنواع الحيوانية معقدة في بنائها، وتطورت عبر حقب زمنية طويلة، ولها سمات متفردة، وتحورت مع وضع بيئي محدد؛ فطائر الدودو dodo يمكن أن يحشوه المحنطون ويتم عرضه في المتاحف بعد أن يكون كل نوعه قد مات وانتهى، غير أن الدودو المحنَّط ليس بعوض عن مجتمعات الدودو النابضة بالحياة. تحورت اللغات، أيضاً، عبر الزمن كي تفي بحاجات مجتمعات معينة في بيئتها. فتشكلت اللغات بفعل البشر كي تكون مستودعات للمعارف الثقافية، فصيغت بكفاءة عالية حتى أصبحت مُعَدَّةً للانتقال عبر الأجيال. ومثل طائر الدودو في المتاحف، فإن اللغات يمكن أن تحفظ في داخل المعاجم والكتب بعد أن ينقضي عهد التحدث بها؛ غير أن كتاب القواعد أو المعجم ليس إلا أثراً طفيفاً لثراء لغة يتحدثها الناس في سياقها الاجتماعي الأصلي.

إن الانقراض المتسارع للغات على المستوى العالمي ليس له مثيل في التاريخ البشري، ومع إن هذا الانقراض لا يضاهي تماما الانقراض البيولوجي للأنواع المهددة بالانقراض إلا أنه يسير بوتيرة أسرع مما يجعل معدلات انقراض الأنواع، إذا ما قورنت به، تبدو شيئاً هيِّناً؛ فتوضح أفضل التقديرات لدى العلماء أنه منذ عام ١٦٠٠ م فقد الكوكب ٤٨٤ نوعاً حيوانياً، بينما تم تسجيل انقراض ٦٥٤ نوعاً نباتياً[٨]. بالطبع هذه تقديرات أقل من الواقع، ولكن مع ذلك تمثل تلك التقديرات معدلاً يقل عن ٧ ٪ من من العدد الكلي للأنواع الحيوانية والنباتية المعروفة. إذا ما قارنا ذلك باللغات ، فإن ما يقدر بـ ٤٠٪ من لغات العالم مهدد بخطر الانقراض، وهذا الرقم ليس إلا رقماً تقريبيًّا؛ فاللغات أكثر تعرضاً للتهديد بالانقراض من الطيور (تبلغ نسبة تعرضها للتهديد بالانقراض threatened أو كونها في خطر الانقراض endangered أو كونها

منقرضة بالفعل extinct ١١٪)، بينما تبلغ هذه النسبة عند الثدييات ١٨٪، والأسماك ٥٪ والنباتات ٨٪) [٩].

يعد اختفاء اللغة تآكلاً أو انقراضاً للأفكار وطرائق المعرفة وطرائق الحديث عن العالم والتجربة الإنسانية. لقد صرح اللغوي كين هيل Ken Hale، والذي قام بدراسة العديد من اللغات المهددة بخطر الانقراض حتى وفاته في ٢٠٠١م قائلاً " إنك حينما تفقد اللغة تفقد حضارة، تفقد ثروة عقلية، عملاً فنياً. يشبه هذا الفقدان عملية إلقاء قنبلة على متحف اللوفر. " لا تزال الاستعارة التي استخدمها هيل قاصرة دون التعبير عن مأساة الموقف. إننا، بكل بساطة، لا نعرف ماهية ما نفقده حين نفقد لغة واحدة. هذا الكتاب يحاول أن يجيب على هذا التساؤل: حينما تموت اللغة، ماذا نفقد ؟

الشكل رقم (١,٣). مستويات خطر الانقراض المعروفة في المجموعات الحيوانية والنباتية ومقارنة ذلك باللغات الإنسانية (وفق المعلومات الواردة في سذرلاند (Sutherland، ٢٠٠٣م).

لماذا نتحدث لغة التوفا ؟

دعنا نتساءل أولاً: كيف نفقد اللغات؟ إذا نظرنا إلى الكون من حولنا، فإننا نرى سكاناً من البشر يتحولون بأعداد كبيرة en masse من التحدث بلغة آبائهم إلى التحدث بلغة أخرى. حين يستبدل الأفراد لغة الأجداد باللغة السائدة في بلادهم، فإنهم يصبحون منصهرين ثقافياً culturally assimilated، ومتجانسين لغوياً. وهناك العديد من المراحل المعروفة التي تتم بها تلك العملية.

تبدأ عملية موت اللغة فعلياً بعملية التمييز السياسي أو الاجتماعي ضد اللغة أو ضد المتحدثين بها. وقد يأخذ هذا الأمر شكل سياسات رسمية للدولة بغرض قمع التعبير أو قد لا يعدو الأمر مجرد إهمال غير مغرض. يذكر واحد من آخر المتحدثين بلغة التوفا Tofa، إحدى لغات سيبيريا، وهو كونستنتين موخاييف Constantine Mukhaev أنه عوقب بسبب التحدث بلغته الأصلية بدلاً من التحدث باللغة الروسية في المدرسة: " حينما كنت طفلاً أرسلونا إلى مدرسة القرية، وكانت الدروس تلقى علينا باللغة الروسية فقط، ولم أستطع أن أفهم أيّ شيء، فكان المدرس اعتاد ضربي حين لا أستطيع الإجابة باللغة الروسية. وفي صباح كل يوم كان المدرس يجرب عصاه ليرى إن كانت لينة كما ينبغي حتى يضربنا بها"[١٠].

كان يمكن للمتحدثين الصغار من أمثال كونستنتين، وقد واجههم تلك الضغوط، أن يتركوا لغة الأجداد، أو أن يعجزوا عن نقلها إلى أطفالهم حينما يكبرون أو يرفضوا القيام بذلك. هناك الكثير من العوامل التي يمكن أن تحول دون نجاح عملية النقل اللغوي، ونادراً ما تكون تلك العوامل نتاج إرادة حرة، ومن ثم تتحول دفة القرار إلى أصغر المتحدثين البالغين من العمر ٦ أو ٧ سنوات، بفعل الإكراه أو الضغط الاجتماعي. يؤثر هؤلاء الأطفال بدورهم على السلوك اللغوي للكبار في داخل

المجتمع[١١]. تنمو لدى هؤلاء المتحدثون الصغار، والذين يعدون بمثابة بارومتر اجتماعي social barometer، حساسية شديدة تجاه المكانة غير اللائقة للغة الكبار، فقد يختار هؤلاء الأطفال التحدث باللغة الأكثر سيطرة. بمجرد حدوث هذا الأمر يكون قرار الاختيار لا رجعة فيه، ويطلق على اللغة التي لم تعد لغة أصلية يتعلمها الأطفال اسم "اللغة المريضة" moribund، فأيامها تكون معدودة في حين يتقدم السن بالمتحدثين بها فيقضون نحبهم ولا يظهر في الأفق حينئذ متحدثون جدد يحلون محلهم.

بمجرد أن تصبح اللغة على شفا الموت، تظل في حالة تدهور ويصبح استخدامها محدوداً، فقد يقتصر استخدامها على المنزل أو بين الكبار أو في المناسبات الاحتفالية فحسب. وحين يصمت الكبار يصبحون مهمشين يعيشون في الظل ويفتقدون أي تمايز لغوي يفصلهم عن المحيطين بهم، وفي ذات الوقت تبدأ ذاكرة أصحاب اللغة المحتضرة في الاضمحلال.

العلم والعاطفة

يحاول العلماء أن يتحاشوا إظهار العاطفة تجاه ما يدرسون، غير أنهم حينما يعملون مع متحدثين بلغات تتلاشى، يصعب ألا يأخذوا على مأخذ الجد عواطف الحزن والأسى، بل والغضب، عند هؤلاء إزاء مصير لغتهم. صرحت لى واحدة من أواخر المتحدثين بلغة التوفا وهى سفيتلانا د. Svetlana D. في عام ٢٠٠١م قائلة" منذ أيام سألتني ابنتي: أمي، لماذا لم تعلمينا لغة التوفا؟لم أعرف السبب. ذهبت هذه اللغة الجميلة الصعبة الآن كلية في طي النسيان."

لا يُظهر كافة المتحدثين باللغة هذه المشاعر، فالبعض قد استسلم للأقدار، بينما يفكر الآخرون في التحول اللغوي language shift على أنه نوع من التقدم ولا يريدون لأطفالهم أن يتحدثوا لغة غامضة وأقل شأناً من الناحية السياسية[١٢]. صرح لى أحد

أبناء مجتمع التوفا من صغار السن قائلاً " إنه من غير المجدي محاولة فهم ما يقوله الكبار" ؛ دائماً ما ينتاب آخر المتحدثين باللغة إزاء مواقف معينة داخل المجتمع وخارجه، إحساس بالعزلة والتهميش. فاللغة لا تعد لغة إن لم تستعمل في الحديث بين البشر.

يعد فقدان اللغة أمراً تشعر تجاهه المجتمعات المتأثرة به بالأسى العميق. وإنني وقد قضيت عشر سنوات من العمل الميداني وسط مجتمعات لغوية مهددة بالانقراض، لأدوِّن بمشاعر ملؤها الأسى العميق أزمة آخر المتحدثين ومعارفهم التي أوشكت أن تضيع. ومع كل هذا، فإننا نقر أن اختفاء اللغات يعد واقعاً اجتماعيًّا وعلميًّا.

من الناحية الاجتماعية، بذل كثير من الأفراد والمجتمعات جهوداً مضنية في الحفاظ على اللغات ونقلها وإصلاحها وإحيائها وإنعاشها، ويعلم هؤلاء جميعاً أن اللغات إنما تترعرع في مجتمعات المتحدثين بها. وقد كتبت العديد من المؤلفات حول تلك المجهودات مثل كتاب "كيف تجعل لغتك حية" How to Keep Your Language Alive للمؤلفة ليان هنتون Leanne Hinton، وكتاب "الكتاب الأخضر لإحياء اللغة عمليًّا " The Green Book of Language Revitalization in Practice [١٣]. وينبغي دعم مثل هذه المشروعات والتوسع بها.

إن الهدف من تأليف هذا الكتاب هو محاولة الكشف عن بعض المسائل العلمية المعقدة، مع مراعاة البعد الإنساني. لا تزال معلوماتنا غير وافية علميًّا حول الكيفية التي يحدث بها موت اللغة وأسباب ذلك أو الكيفية التي يمكن بها لقرارات فردية من الأطفال أن تثير موجات عاتية من التغير في المجتمعات. وإننا نفتقر، أيضاً، إلى فهم واضح إزاء ما نفقده على وجه اليقين. هل مانفقده هو شيء فريد، معرفة لا يمكن استرجاعها؟ أم هو محض معارف عامة منظمة تنظيما فريداً من نوعه؟ هل يمكن أن

تحصّل هذه المعرفة تحصيلاً وافياً من الكتب وشرائط الفيديو مع غياب المتحدثين بها؟ هل يمكن إعادة إنتاج هذه المعرفة إذا فقدناها؟ هل ستظهر هذه المعرفة مرة أخرى تلقائياً بعد فترة، أم أنها ستظل أمراً لا مرد له إلى الأبد؟ يعد هذا الكتاب محاولة لإلقاء الضوء على هذه الأسئلة الشائكة من منظور علمي. لقد بدأ علماء اللغة وعلماء الأنثروبولوجيا في تدبر ما يمكن للعلم أن يستفيد به من هذه الأنظمة المعرفية ؛ وهي في حالة من النشاط الوظيفي ولا تزال متاحة للدراسة. يهدف مسعى العلماء إلى توثيق المعرفة الإنسانية لتحقيق فهم أفضل لمكانتنا في الكون. ومما يعجل بالشروع في هذه المهمة أن كثيراً من مجالات المعرفة تذهب طي النسيان، ولا يختلف هذا السعى العلمي عن باقى المشروعات العلمية الأخرى كتلك التي تسرع الخطى، مثلاً، إلى توثيق الأنواع الحيوانية قبل أن تنقرض[١٤].

قد يفي العلم أيضاً بحاجات المجتمع اللغوي، غير أن هذا ليس هو الهدف الأساس للعلماء ؛ فبالرغم من النيات الحسنة إلا أن الغرباء عن المجتمع اللغوي لا يمكن أن "يحافظوا" على اللغات أو "ينقذوها" أو يغيروا دفة الأمور. لا يمكن لأحد أن يحافظ على لغته سوى الناطقين باللغة أنفسهم ؛ فلا يوجد شيء يمكن أن نطلق عليه اللغة الحية دون أن يكون هناك ناطقين بها (وهذا يشمل أيضا لغات الإشارة كما سيتضح من مناقشتها في الفصل السابع). على الأغلب، لا يمكن حتى للجهود المضنية التي يبذلها الناطقون باللغة أن تنقذها من شفا الانقراض. جل ما يمكن للعلماء القيام به هو التدوين الدقيق في شكل تسجيلات للغة وتحليلات لها. قد يثبت منفعة هذه التسجيلات لعلماء المستقبل والمجتمعات القادمة وأبناء المتحدثين باللغات التراثية، بل وربما للأجيال الجديدة من المتحدثين باللغة.

تنذر التنبؤات الخطيرة بتلاشي لغات العالم إلى النصف في القرن الحادى

والعشرين ؛ وهناك تنبؤات أخرى أكثر تفاؤلاً تظهر تعافي بعض اللغات الصغرى وتظهر كذلك بعض الإنجازات المتواضعة في مجال إحياء لغات أخرى. ومهما يكن من شيء، فقد تصل آلاف اللغات إلى نقطة لا يمكن عندها لأى مجهودات أن تحول دون تدهورها. وإذا كان الحال على ما هو عليه، فإنه ينبغى علينا، لإفادة العلم والإنسانية، أن نوثق ما نستطيع توثيقه في الوقت الذي يسعفنا فيه فعل ذلك.

البقاع الساخنة للتنوع اللغوي

إذا عدنا إلى الماضي حينما كان الإنسان صياداً وجامعاً للثمار hunter-gatherer نجد أن الأمر المعتاد في حياة البشر هو أن يعيشوا في جماعات صغيرة small bands، وهذا هو الوضع النموذجي للتنوع اللغوي، إذ إنه في الوقت الذي تمضي فيه كل جماعة في طريقها تكون لغتها عرضة للتغيُّر الداخلي السريع. وإذا انقسمت جماعة إلى قسمين فإن وتيرة التغير اللغوي تكون أسرع بحيث يصبح من الصعب بمكان على تلك الجماعة أن تتواصل لغويًّا بعد ثمانية إلى عشرة أجيال. يتوقف الفهم المتبادل بين الناطقين باللغة خلال قرنين أو ثلاثة، وهنا تصبح اللغة الواحدة لغتين.

غالباً ما نجد التنوع الأكبر في مناطق العالم التي يكون فيها عدد السكان قليلاً وتوزيعهم غير منتظم. فجزر فانواتو Vanuatu المأهولة بالسكان والتي يبلغ يبلغ عددها ٦٥ جزيرة (والتي تكافئ مساحتها مجتمعة مساحة ولاية كونتيكت)، على سبيل المثال، تضم بين جنباتها ١٠٩ لغة متمايزة في تجمع سكاني يبلغ ٢٠٥,٠٠٠ نسمة، بواقع لغة واحدة لكل ١٨٨٠ نسمة.

تشتمل صحراء تشاد الواسعة والتي يسكنها العديد من الجماعات البدوية على ١٣٢ لغة، وسط كتلة سكانية تبلغ ٩,٨ مليون نسمة، وتتمتع هذه اللغات بقواعد أكبر

من المتحدثين بمعدل ٧٤,٠٠٠ نسمة لكل لغة. وعلى شاكلة الجزر التي سبق ذكرها، يبدو أن هذه الأرض الصحراوية المتسعة وغير المنتظمة في توزيعها السكاني، والتي يبلغ معدل انتشار السكان فيها ١٢ شخصاً لكل ميل مربع، تحظى أيضاً بالتنوع اللغوي [١٥].

وحتى في داخل أمريكا، نرى تنوعاً كبيراً في آلاسكا وهي منطقة كبيرة وغير منتظمة التوزيع السكاني، حيث يبلغ معدل توزيع السكان فيها شخص واحد لكل ميل مربع. يتحدث سكان آلاسكا الأصليون، والبالغ عددهم ٨٦٠٠٠ نسمة، ٢١ لغة، معظمها غير مستخدم في باقي أنحاء الأرض [١٦]. ويتحدث أغلبية السكان في آلاسكا في الوقت الحاضر والبالغ عددهم ٦٤٠,٠٠٠ نسمة، اللغة الإنجليزية، وبذا تغرق جزر لغوية صغيرة في خضم بحرٍ غلابٍ من الإنجليزية.

وعلى النقيض من آلاسكا وتشاد وفانواتو، فإن دول غرب أوروبا لا تتمتع إلا بقدر ضئيل من التنوع اللغوي، فهذه الدول تمثل مأوى لعائلة لغوية كبيرة واحدة تتكون من اللغات قريبة الصلة والتي تنتمي إلى العائلة الهند-أوروبية Indo-European التي تمتد من أيرلندا عبر أوراسيا إلى الهند. والاستثناء الوحيد داخل أوروبا هي لغة الباسك Basque التي تستخدم في أسبانيا وفرنسا وهي لغة منعزلة ليس لها قرابة لغوية معروفة. ففانواتو الصغيرة تتمتع بلغات أكثر، وبتنوع أشمل، مما تنعم به كل أوروبا الغربية.

وتوضح الخريطة (الشكل رقم ١,٤) دول آسيا ودول أوقيانوسيا Oceania والأمريكتين ويظهر حجم كل منها بحسب أعداد ما بها من لغات أصلية indigenous languages. ومع أنه من الصعب تعريف كلمة "أصلي" indigenous، الا أنه يمكن اعتبار شعب ما "أصليًا" إذا كان يسكن أرضاً معينة قبل التاريخ المسجل وله ارتباط قوي

بيئتها، ومن الواضح وجود رابطة بين التنوع اللغوي ووجود سكان أصليين.

تعد اللغات الأصلية والحضارات الأصلية من أكثر الأشياء تعرضاً لخطر الانقراض في كل بقاع العالم. فيرتبط توزيع التنوع اللغوي بتوزيع الشعوب الأصلية في كل أنحاء العالم، وبمقارنة كلا التوزيعين نجد أنهما يمثلان صورة غير مستوية، فكما يتضح من الشكل رقم (١,٤)، تظهر بابوا غينيا الجديدة Papua New Guinea وإريان جايا Irian Jaya في أندونيسيا ضخمتين في الحجم نظراً لكونهما مأوى للعدد الأكبر من الشعوب واللغات الأصلية. وتظهر نيبال وفانواتو واستراليا كذلك، وهي مناطق

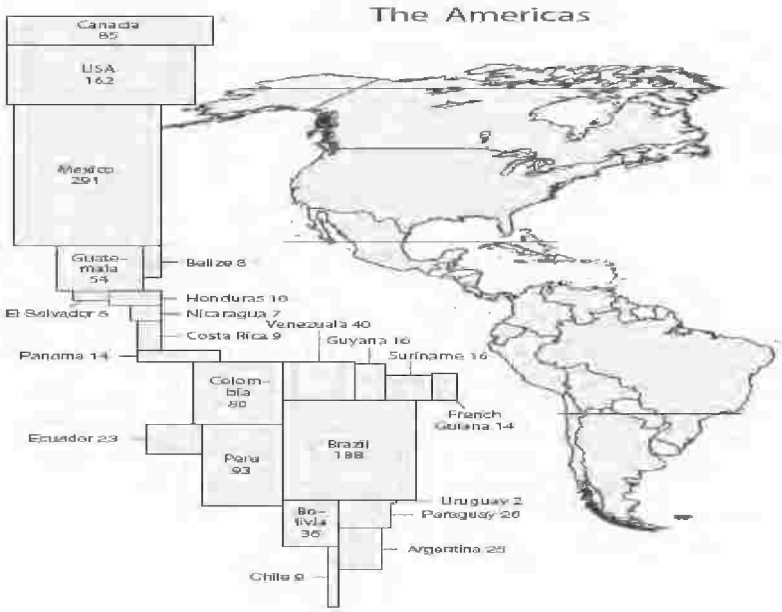

الشكل رقم (١,٤). في هذه الصورة والصور العليا) دول مختارة من آسيا والأمريكيتين وتظهر مساحة حجمهاحسب ما بها من عدد لغات أصلية. المعلومات الواردة مستقاة من جوردون (Gordon، ٢٠٠٥).

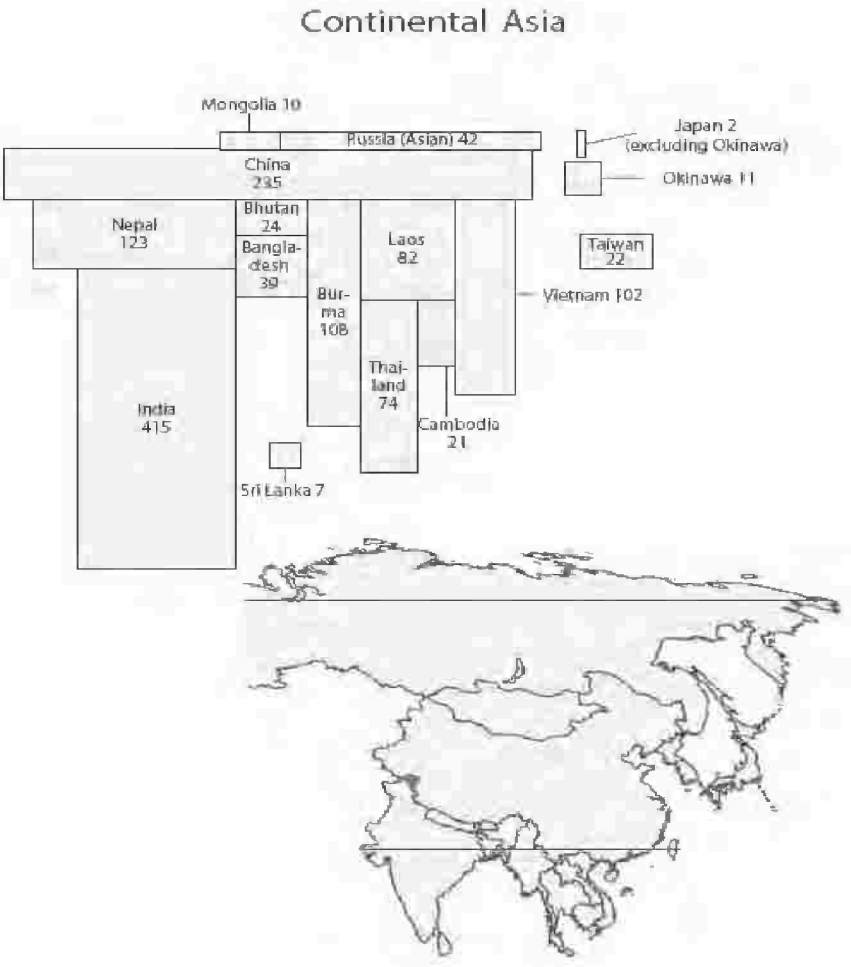

تابع الشكل رقم (١,٤).

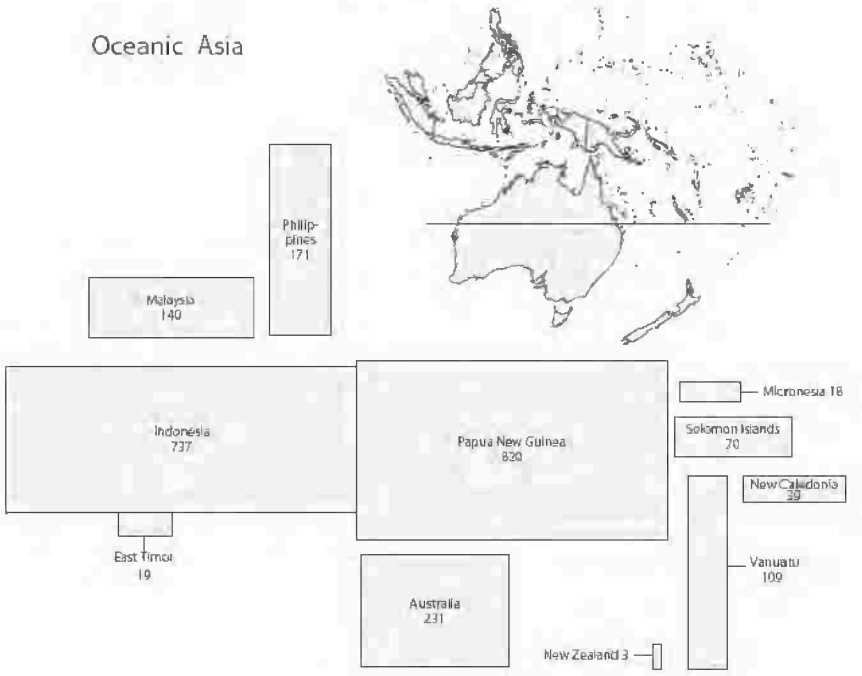

تابع الشكل رقم (١,٤).

تحتوى على عدد أقل نسبيًا من السكان، كبيرة في هذه الخريطة نظراً لتنوعها اللغوي الكبير. أما جزر اليابان الرئيسة، والتي يتعدى سكانها المائة مليون متحدث، فتظهر صغيرة الحجم، إذ أنها لا تنعم تقريباً بأي تنوع، فلا يوجد سوى لغتين أصليتين منتعشتين، اليابانية ولغة الإشارة اليابانية، بالإضافة إلى لغة الآينو Ainu شبه المنقرضة.

قواعد غير متعادلة للمتحدثين

يتحدث سكان العالم ، والبالغ عددهم ٦,٣٤ بليون نسمة، وفق آخر تعداد، ٦,٩١٢ لغة[١٧]. وإذا قسمنا المتحدثين بصورة متساوية بين اللغات فسوف يكون المعدل ٩١٧,٠٠٠ متحدثاً لكل لغة، غير أن اللغات غير متساوية في توزيعها الديموجرافي بشكل يبعث على الدهشة؛ فاللغات العشرالكبرى يتحدثها مئات الملايين الذين يمثلون

أكثر من خمسين بالمائة من البشر. وإذا وسعنا هذه المجموعة من اللغات كي نضم إليها أعلى ٨٣ لغة في حجمها السكاني ، نكون بذلك قد غطينا ما يقرب من ٨٠٪ من سكان العالم.

إن النصف الأصغر من لغات العالم يحتوي على ٣٥٠٠ لغة لا يتحدثها إلا ٠,٢٪ فقط من سكان العالم. وتشمل هذه القائمة اللغات الصغيرة جدًّا مثل لغة التوفا (٣٠ متحدثاً في سيبيريا) وفيليلا Vilela (متحدثان اثنان في الأرجنتين) وماكا Makah (لغة انقرضت في ولاية واشنطن بدءًا من مطلع ٢٠٠٢ ، غير أن هناك متحدثين يعرفون تلك اللغة معرفة جزئية ، وبعض الناس يتعلمون هذه اللغة الآن كلغة ثانية). يبلغ معدل متوسط عدد المتحدثين إلى عدد اللغات البشرية خمسة آلاف شخص فقط لكل لغة ، ونصف هذه اللغات العالم يتحدثها أقل من ٥٠٠٠ شخص لكل لغة ، مما يضع تلك اللغات على حافة الخطر.

يسعى الأفراد في مجتمعات الأقلية ، غالباً ، سعياً حثيثاً نحو التقدم في مجتمعاتهم ، لذا فإنهم يشعرون ، في العادة ، أنه للقيام بذلك عليهم التخلي عن لغة الأجداد والانصهار assimilating في اللغة القومية فحسب وإجبار أبنائهم على التحدث بها. وكما أن التوزيع الحالي يبدو غير متوازن فإن هذه الأهرامات التوزيعية ، كذلك ، سوف تبدو غير متوازنة أكثر بحلول عام ٢٠٢٠.

ومن المتوقع أن يظل عدد سكان العالم ثابتاً في هذا القرن ، ويمكن أن يحول ذلك دون حدوث أزمة زيادة سكانية ، ويرجع هذا التنبؤ إلى حقيقة مفادها أنه كلما أصبح الناس أكثر حضرية ، بغض النظر عن تحسن أوضاعهم الإقتصادية ، كلما كانوا أكثر ميلاً إلى إنجاب عدد أقل من الأطفال[١٨] . غير أن الهجرة العالمية المستمرة للمراكز الحضرية تسبب مشكلات أكبر للغات الصغيرة. فاللغات الصغيرة غالباً لا تتوافر لها

الظروف التي تحتاجها للبقاء في المساحات الحضرية الضيقة. هناك حالات يمكن للغات الصغيرة فيها أن تتعايش في حالة متوازنة مع لغة كبرى ولفترة طويلة من الزمن، غير أن هذه الحالات تعد نادرة [١٩]، فالتحضر Urbanization ينمو ويتزايد حول العالم وسوف يصبح هذا هو الضربة القاضية للتنوع اللغوي.

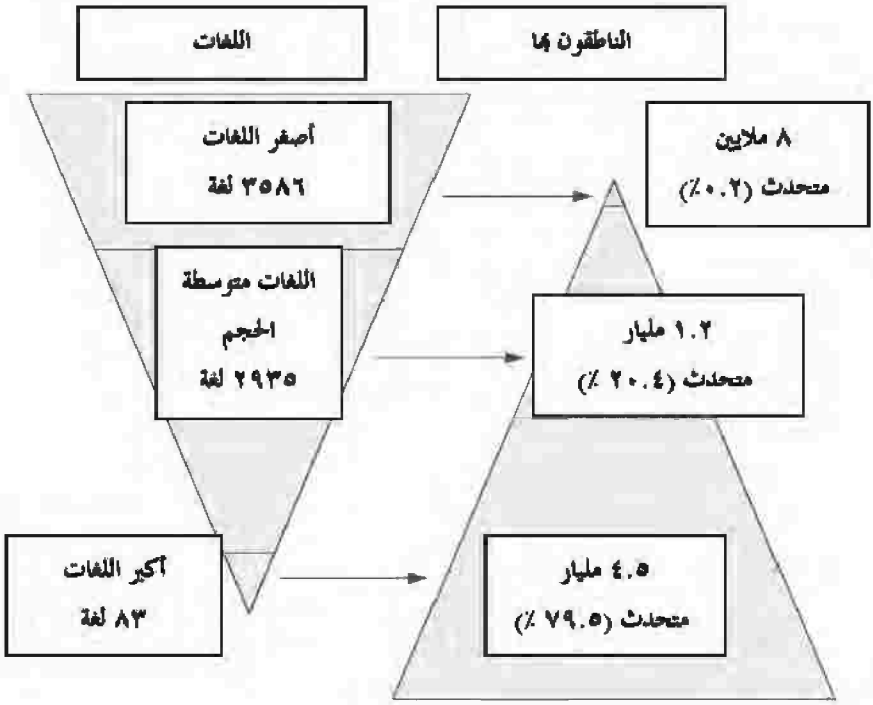

الشكل رقم (١,٥). النسبة غير المتعادلة بين عدد اللغات وعدد المتحدثين بها.

قاعدة المعرفة البشرية المتآكلة

ماذا نفقد، بالضبط، حينما تختفي اللغات؟ لقد أصبح من نافلة القول أن نتحدث عن علاج للسرطان قد نجده في غابات الأمازون المطيرة مستخرجاً من نبات

طبي لا يعرفه إلا الشمانيون المحليون[٢٠] . غير أن شركات الأدوية لم تألُ جهداً في الحصول هذه المعلومات، وفي كثير من الأحوال تستغلها في إنتاج أدوية مفيدة. فقد حققت شركات الأدوية ما يقدر بـ ٨٥ بليون دولار سنوياً ربحًا من أدوية اشتقت من نباتات كان السكان الأصليون أول من عرف خصائصها العلاجية[٢١].

ووفقاً لتقديرات موثوق بها، تصيبنا الدهشة حين نجد أن ٨٧٪ من أنواع النباتات والحيوانات الحية في العالم لم تكتشف بعد أو لم يسمها العلم الحديث أو يصفها أو يصنفها من قبل [٢٢]. وإذا استثنينا من هذا العدد الميكروبات الدقيقة، فلا يبقى معنا إلا الكائنات الكبيرة التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة. فيتوجب علينا أن ننظر إلى الحضارات الأصلية لملء الفجوة المعرفية الكبيرة في عالم الطبيعة. ولكن هل يمكن لهذه الحضارات أن تحافظ على معارفها في وجه التجانس اللغوي العالمي؟

تمتد قاعدة المعرفة البشرية إلى ما وراء استخدام النباتات الطبية، فالأنظمة المعرفية التي نطالعها في هذا الكتاب تشمل الأسماك وغزلان الرنة reindeer وأوجه القمر moon phases وأنماط الرياح wind patterns ونباتات الأرز. لقد طورت المجتمعات التي تعتمد على الطبيعة في بقائها تقنيات لاستزراع وتدجين domesticate واستغلال هذه الموارد البيئية، ومع أننا الآن نتمتع، في الوقت الحاضر، بطرق حديثة في الاستزراع، ولدينا المعامل والتقويمات والمكتبات فإن هذا كله لا يلغي أهمية المعارف التراثية. وفي كافة الأحوال، أصبحت حاجتنا للمعارف التراثية أكثر إلحاحاً في وقت يتعرض فيه الكوكب للاستنزاف أكثر مما يحتمل.

إن أكثر، إن لم يكن معظم، ما تعرفه البشرية عن عالم الطبيعة يكمن خارج كتب العلوم والمكتبات وقواعد المعلومات، ويوجد، فحسب، في اللغات غير الموثقة، في ذاكرة البشر. هذه المعرفة التي نحن بصددها تبعد جيلاً واحداً عن الانقراض، وهي دائماً في خطر الاندثار إذا لم تنتقل إلى أجيال أخرى. تبقى هذه القاعدة المعرفية الضخمة غير مكتشفة وغير مصنفة إلى حد كبير، ولا أمل في الولوج إليها إلا إذا

شجعنا من يملكون ناصيتها ويحافظون عليها على الاستمرار في هذا السبيل.

إذا شعر الناس أن ما لديهم من معرفة تستحق الحفاظ عليها فإنهم سيجدون إلى ذلك سبيلا، أما إذا حدثناهم عن عدم فائدة تلك اللغات في العالم الحديث أو أرغمناهم على الاعتقاد بذلك، فإنهم قد يتخلون عنها. لا تنتقل المعرفة التراثية بسهولة من اللغات الصغيرة المهددة إلى اللغات العالمية الكبيرة، ولكن كيف يصح ذلك إذا كنا نعتقد أن أي لغة قادرة على التعبير عن أي فكرة؟ هل يمكن لسكان جزر سليمان Solomon islanders أن يتحدثوا عن سلوك قطعان الأسماك بالإنجليزية بنفس السهولة التي يعبرون بها عن هذا في لغة ماروفو Marovo؟[٢٣] هل شعب السيري Seri الأصلي في المكسيك بحاجة، فعليًا، إلى أي لغة غير الأسبانية لوصف البيات الشتوي hibernation أو دورات التزاوج mating cycles عند السلاحف البحرية؟ [٢٤]

الشكل رقم (١,٦). تراقب إحدى كبيرات السن في قبيلة الفوجاو Ifugao الفلبينية حصاد الأرز مع ابنها (أغسطس٢٠٠١). تواجة المعرفة التراثية بالأرز وتقنيات زراعة تقليداً من جراء تعدي التقنيات الجديدة عليها. تصوير ك. ديفيد هاريسون.

إنني أقول إنه حينما تتخلى المجتمعات الصغيرة عن لغاتها وتتحول إلى الإنجليزية أو الأسبانية يحدث انقطاع كبير في نقل المعارف التراثية عبر الأجيال، وينجم هذا جزئياً من الطريقة التي تصاغ أو تقدم بها المعرفة في لغة دون غيرها.

انظر إلى لغة إخون الغربية !xoon western، وهي إحدى اللغات الصغيرة في ناميبيا (علامة التعجب تعني صوت طقطقة click sound). في هذه اللغة تسمى السُحُب "بيوت المطر" rain houses [٢٥]. فعندما يتعلم الطفل المتحدث بلغة إخون اللفظ الذي يعني السحاب فإن يحصل تلقائياً (ومجاناً) على المعلومة الإضافية بأن السحب تحمل الأمطار وهي مصدرها. إن الطفل الإنجليزي الذي يتعلم كلمة "سحاب" cloud أو الطفل الفرنسي الذي يتعلم كلمة "nuage" لا يحصل على أي معلومة عن المطر، وعليه أن يتعلم بنفسه، سواء بالملاحظة أو بالتعلم المباشر، أن المطر يأتي من السحب.

يمكننا أن نجد أمثلة كهذه في أنظمة أخرى أكثر تعقيداً مثل نظام تصنيف غزلان الرنّة reindeer classification عند السيبيريين الأصليين والذي سوف نناقشه في الفصل القادم. إنني أدّعي أن اختفاء اللغات سوف يؤدي إلى تآكل كبير في قاعدة المعرفة البشرية؛ نظراً لأن أنظمة مثل نظام تصنيف غزال الرنة سوف تختفي، وحينما يحدث ذلك سوف تختفي معها المعارف المهمة والراسخة التي كونتها البشرية على المدى الطويل والتي قادت التفاعل بين الإنسان والبيئة لآلاف السنين. إننا إزاء فقدان الحكمة المتراكمة وفقدان ملاحظات كونتها أجيال من البشر حول عالم الطبيعة والنباتات والحيوانات والطقس، والتربة وهكذا سوف تكون الخسارة عظيمة، ولن يكون هناك سبيل، في الغالب، لاستعادة المعرفة.

التراث الثقافي

إجابة أخرى عن سؤال: "ماذا نفقد"؟ هي أننا نفقد تراثنا الثقافي الإنساني. أين عسانا أن نكون بدون الحكمة التراثية التي نجدها في التاريخ الشفهي، الشعر والحكايات الملحمية، وقصص الخلق، والنكات، والألغاز، والأقوال الحكيمة وأغاني الأطفال؟ قد نجد هذه الأنواع الأدبية genres والتي هي نتاج الأصالة الإنسانية والفكاهة اللغوية بالكلمات والإبداع في كل لغات البشر. ولكن، كما سنرى في الفصل الخامس، لم تدون الغالبية العظمى للغات البشرية على الإطلاق. لا توجد الفنون اللفظية verbal arts في تلك اللغات إلا في الذاكرة وهي عرضة للنسيان مع انقراض اللغات. لا يوجد مقدسات في الثقافات بحيث يمكن أن تفلت من آفة النسيان، فقبيلة التوفا Tofa في سيبيريا لم تعد تتذكر أسطورة الخلق التي آمنت يوماً بها. كانت هذه القصة تحتوي على بطة وكانت القصة تدور كالآتي:

في البدء لم يكن هناك بشر، لم يكن هناك شيء على الإطلاق،
لم يكن هناك سوى البطة الأولى، وكانت تطير باستمرار
وبعد أن استقرت لليلة، وضعت البطة بيضة.
ثم انكسرت بيضتها وانسكب السائل منها فكون بحيرة.
أصبحت قشرة البيضة هي الأرض.
هكذا خلقت الأرض.

لم يكن للتوفا سوى ثلاثون متحدثاً من كبار السن، وانمحت قصة الخلق لديهم بالفعل، ولم تصبح سوى ذكرى، ففي ثلاث رحلات ميدانية بين أهل التوفا وعشرات المقابلات مع آخر المتحدثين بهذه اللغة من الشيوخ، لم أستطع أن أجد شخصاً واحداً يستطيع أن يتلو قصة البطة. قليل من أهل التوفا فقط من أقر بأن هذه القصة كانت

موجودة، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يعيد سردها لأحفادهم.

قد نكون غير مبالين بموت قصة بطة التوفا غير أن كل التقاليد الأسطورية ما هي إلا محاولات لفهم الكون، فكل أسطورة تسهم بقطعة صغيرة في حل لغز كيفية فهم البشر للحياة والكون ولكل ما هو مقدس. فبدون بطة أسطورة الخلق عند التوفا فإننا سنفقد، بالطبع، قطعة من هذا اللغز[٢٦].

الشكل رقم (١,٧). يعد كونستنتين موخايف Constantine Mukhaev (ولد سنة ١٩٤٨م) مع والدته آنا موخايفا Anna Mukhaeva (ولدت عام ١٩١٦م) من بين آخر ثلاثين متحدثا بلغة التوفا. وهنا يحكي كونستنتين قصة خيالية توفية عن طائر مفقود. تصوير: ك. ديفيد هاريسون في يونيو ٢٠٠١ م.

اكتساب الإنسان للمعرفة

Human Cognition

تكشف اللغات عن حدود اكتساب الإنسان للمعرفة والكيفية التي يعمل بها العقل. إن إجابة ثالثة للسؤال: ماذا نفقد؟ تتعلق بفهمنا العلمي للعقل البشري؛ فكل إنسان سوي هو شخص قادر على استعمال اللغة، غير أن لكل شخص طريقته في

الحديث التي يختلف بها عن غيره، كما أن لديه أشياء مختلفة يتحدث عنها. وراء هذا الاختلاف اللغوي تكمن تشابهات عميقة في الطريقة التي يعالج بها المخ البشري الكلام والمعلومات المعرفية. إن أحد الأهداف الرئيسة لعلم اللغة، كمجال علمي، هو الكشف عن السمات العامة لكل لغات العالم. وحين نكتشف تلك السمات فإن اللغويين يعتقدون أننا بذلك نكون قد تعلمنا شيئاً عن لبنات بناء الفكر الإنساني وهيكله الأساس.

يحتاج اللغويون من أجل إحراز التقدم في علمهم إلى معلومات لا يحصلون عليها إلا من الناطقين باللغات، وإذا لم يستطع اللغويون إلا تحصيل اللغات الكبرى، كاليابانية، الهندية، والإسبانية، لدراستها، فإننا سوف نعجز عجزاً كبيراً عن فهم الإدراك الإنساني. إن اللغويين في حاجة ماسة إلى التنقيب عن أغرب اللغات والكلمات وأكثرها شذوذاً لاختبار النماذج النظرية، ففي كثير من الأحيان كانت افتراضات اللغويين غالباً ما تقابل بالتحدي (إن لم يكن بالرفض الكامل) بعد اكتشاف تراكيب غريبة في لغات لم تكن قد اكتشفت من قبل.

إن لغة اليورارينا urarina، وهي لغة يتحدثها أقل من ٣٠٠٠ شخص في أحراش الأمازون في بيرو، لديها نظام غريب في ترتيب الكلمات، فالجملة في اليورارينا تحتوي على ثلاثة عناصر تكون وفق الترتيب كما في المثال:

حقيبة كنكاجو + يسرق + قرد العنكبوت

يفهم من هذا الترتيب أن "قرد العنكبوت يسرق حقيبة الكنكاجو"، فلغة اليورارينا تضع المفعول به المباشر أولاً يليه الفعل ثم الفاعل في آخر الجملة[٢٧]. هناك أنماط لترتيب الكلمات الأكثر شيوعاً. فاللغة الانجليزية تستخدم الفاعل - الفعل - المفعول (S-V-O) غير أن ذلك الترتيب ليس هو الاحتمال الوحيد في اللغة. واللغتان

التركية والألمانية يضعان الفعل في نهاية الجملة، مستخدمتين الترتيب (فاعل ـ مفعول ـ فعل) (S-O-V) بينما اللغة الويلزية Welsh تستعمل (فعل ـ فاعل ـ مفعول) (V-S-O)، بحيث تضع الفعل أولاً والفاعل ثانياً والمفعول أخيراً (أقرأ+ أنا+ الكتاب = أنا أقرأ الكتاب).

غير أن نظام مفعول — فعل- فاعل في اليوريرينا هو نظام نادر متلاشٍ بين لغات العالم. لولا لغة يورارينا وقليل من لغات الأمازون الأخرى، ربما لم يكن ليساور العلماء أدنى شك في وجود احتمالية بناء هذه الجملة بهذا الشكل. بل ربما أعطى علماء اللغة لأنفسهم حرية افتراض ،على غير حق، أن ترتيب الكلمات وفق نظام مفعول- فعل- فاعل مستحيل إدراكيًّا وأن العقل البشري لا يمكنه معالجة ذلك. تختزن اللغات الصغيرة العديد من المفاجآت الأخرى للعلم، بعضها نناقشه في الفصل السابع. يلقي كل نمط جديد للقواعد نحصل عليه الضوء على الكيفية التي ينتج العقل بها اللغة. إن فقدان لغة واحدة فحسب قد يغلق الباب للأبد أمام الفهم الشامل للقدرة المعرفية الإنسانية.

التحدي الأكبر أمامنا للحفاظ على اللغة

لقد عرضنا ثلاثة أسباب ملحة، على الأقل ، للحفاظ على اللغات المتلاشية وتوثيقها ؛ يكمن السبب الأول في أن قاعدة المعرفة البشرية لدينا تتآكل، فمعظم ما تعلمه البشر في آلاف السنين حول كيفية العيش في هذا الكوكب يكمن في اللغات المهددة، فإذا تركنا تلك اللغات تتلاشى فإننا نغامر بقدرتنا على البقاء في الوقت الذي يقضي فيه النمو السكاني المتزايد على الأنظمة البيئية للأرض، ويكمن السبب الثاني في تراثنا الثقافي الإنساني والذي يشمل الأساطير وأنظمة الاعتقاد، والحكمة،

والشعر، والأغاني، والحكايات الملحمية. إذا تركنا تاريخنا ينمحي فإننا بذلك نسلم أنفسنا إلى فقدان ذاكرتنا الثقافية، وهو ما قد يقوض إحساسنا بالهدف وقدرتنا على التعايش في سلام مع التنوع البشري، والسبب الثالث هو اللغز الكبير للمعرفة الإنسانية وقدرتنا على فهم كيفية تنظيم العقل للمعلومات ومعالجتها. لا يزال العقل البشري، في معظمه، صندوقاً أسود، فلا يمكننا سبر وظائفه الداخلية أو معرفة ما به من أفكار، على الأغلب، إلا عن طريق ما ينتجه من كلمات. تحتفظ اللغات المهمشة، على أقل تقدير، ببعض مفاتيح سبر أغوار العقل البشري. لكل هذه الأسباب، وبالنظر إلى ما قد يترتب على الفشل من نتائج سيئة، فإننا يجب أن ننظر إلى توثيق اللغات المعرضة لخطر الانقراض، وهي لا تزال بعد تطرق أسماعنا، وإحياء تلك الألسنة، التي لا تزال تلهج، على أنه أعظم تحدٍّ للحفاظ على اللغة يواجهه جيلنا.

يتحدثون عن أنفسهم

يدور العلم حول محاولة فهم الجنس البشري وإدراك مكانتنا في هذا الكون، ونظراً لأن اللغة تعد شيئاً فريداً للبشر، يحاول علم اللغة فهم ما لدينا من قدرات بشرية فريدة.

ويسهل عليك عند تحليل الأنظمة المعرفية أن تكون مجرداً وتقنيًّا وموضوعيًّا، غير أن مكمن الحقيقة حول اللغات المعرضة لخطر الانقراض يدور حول المتحدثين وما يقولونه عن أنفسهم. فيجب علينا أن نراعى، في ضوء ذلك النقاش العملي لقضية الانقراض اللغوي، ألا يغيب عن ناظرينا بشر حقيقيون لهم خبرات ومواقف وآراء.

ولكي أبرز موقف المتحدثين باللغات الأصلية تجاه قضية الانقراض اللغوي، سوف أعرض في ثنايا هذا الكتاب آراء متحدثي اللغات المعرضة لخطر الانقراض الذين

كنت أعمل معهم. سوف نقابل، من خلال عرض ست دراسات حالة قصيرة، قبيلة مونتشاك البدوية Monchak التي تعيش في منغوليا Mongolia وتوفا Tofa ، ورعاة غزلان الرنة reindeer herders في جنوب سيبيريا ثم بعد ذلك نقابل الأُس Ös ، وهم صيادون من وسط سيبيريا ثم نقابل الأيفوجاوIfugao، زارعي الأرز في الفلبين، والكرايم Karaim وهم أقلية من الشعب التوركي Turkic في ليتوانيا، ثم أخيراً نقابل قبيلة الموندا Munda في شمال شرق الهند. مع أن انتقاء هذه الحالات قد لا يكون متوازناً، إلا أنه يمثل عينات من مجتمعات وأفراد عملت معهم عن كثب. لكل شخص من هؤلاء الذين عملت معهم قصة يحكيها بلغة لا يفهمها إلا أناس يتناقصون عاماً بعد عام.

ذكر واحد من هذه الوجوه هو السيد، فاسيا جابوف Vasya Gabov ، والذي يحكي قصته في الفصل الخامس، كيف أنه أجبر على الشعور بالخزي حينما كان طفلاً في الصف الأول من كونه مختلفاً ومتحدثاً أصلياً بلغته، لغة الأُس؛ إن الخزي الذي شعر به على أرض ملعب المدرسة جعله يقرر ألا يورِّث لغة الأس لأبنائه الأربعة، غير أنه في عام ٢٠٠٣م، وقد أصبح واحداً من أواخر المتحدثين الذين لا يزالون على قيد الحياة، أكد لي قائلاً "لن أتخلى عن لغتي. لا أزال أتحدثها !".

صرحت لي مارتا كونجاريف Marta Kongaraev ، وهي إحدى أفراد قبيلة التوفا الصغيرة، كيف أن السياسات الحكومية القمعية قد محت لغتها: "لقد حظروا لغتنا ظلماً، ولهذ السبب لا يعرف الشباب لغتنا الآن. هذا ليس خطؤهم، إنه خطأ هؤلاء البلهاء في الحكومة".

ونفس مشاعر مارتا عبر عنها أخو زوجها سبارتاك كونجاريف Spartak Kongaraev ، الذي لا يزال يتذكر حينما كان اللباس والكلام المحلي محظوراً وحينما أجبر شعب التوفا على الانضواء تحت لواء الأغلبية وهي الثقافة السوفيتية الروسية:

"في الخمسينيات كان هناك أمر رسمي ألا نتكلم كثيراً بلغة التوفا، بالروسية فقط. الآن هناك العديد ممن نسوا تلك اللغة لا يستطيعون الكلام ولا حتى الغناء. لا زلت أعرف كيف أغني، لم أنس ذلك بعد". تعبرالعديد من المجموعات الأصلية الصغيرة مثل التوفا والأس وغيرها عن امتعاضهم، بل وغضبهم، إزاء الطريقة التي محيت بها لغتهم وثقافتهم. وتعكس قصص مثل هذه تاريخ الاستعمار واضطهاد مجموعات صغيرة على يد جماعات أكبر في كل أنحاء العالم وعبر التاريخ الحديث.

إن الموت الكبير للغة، الذي نواجهه الآن، إنما هو نتاج الاستعمار، المشروع الكبير الرامي إلى حكم الشعوب غير الأوروبية وتحويل عقيدتها proselytize والتحكم بها. غير أن هذا الموت أيضاً هو نتاج عوامل طبيعية ديموجرافية، ففي الوقت الذي ينكمش فيه عالمنا ويزيد عددنا يهاجر الناس بإرادتهم الحرة إلى المدن لتحسين معيشتهم، وفي ظل ظروف التكدس السكاني مثل تلك التي نجدها في بنكوك ومكسيكوستى ونيويورك تصبح المجانسة العالمية للغة global homogenization of language أمراً لا مفر منه.

من بين أواخر المتحدثين للاثنتي عشرة لغة المعرضة لخطر الانقراض الذين قابلتهم في أماكن مثل روسيا ومنغوليا وليتوانيا والفلبين ومدينة نيويورك لم يبد الخجل ولا التحفظ إلا على قليل منهم؛ فقد كانت الأغلبية العظمى منهم تشعر بالبهجة إزاء إبداء الاهتمام بهم. وكانوا في غاية السعادة للمشاركة بأغانيهم ومعارفهم التراثية وحتى بنكاتهم، فحكمتهم وتحديهم قد حركت مشاعرى على نحو عميق كإنسان وكعالم. بتأليف هذا الكتاب أجد أن فرصة فريدة قد سنحت لي كي أشاركهم في بعض قصصهم مع آخرين لن يتقابلوا معهم أبداً. إن الهدف من تأليف هذا الكتاب هو البحث عن إجابة لتساؤلات علمية، ولكن في ثنايا العمل تكمن أشياء كثيرة تعلمتها من المحاورة مع أواخر المتحدثين وتعلمتها من الإنصات إلى حكمته.

هوامش الفصل الأول: عالم ذو أصوات عديدة (ولكنها أقل مما كانت)

(١) هذه الجملة هي إعادة صياغة لجملة شبيهة قالها د. مايكل كراوس Micheal Kraus. في مؤتمر حول توثيق اللغة بجامعة هارفارد، يوليو ٢٠٠٥. أنظر أيضاً كراوس Krauss، ١٩٩٢م).

(٢) عدّ اللغات: الإحصاءات الواردة في هذه الفقرة و الفقرة التالية مقتبسة من جوردون (Gordon، ٢٠٠٥م). يستحيل، في الواقع، الوصول إلى أي إحصاء صادق للغات العالم يمكن التحقق من صحته. فالعديد من اللغات توجد في تسلسل لغوي متصل continuum وتقسيمها إلى وحدات منفصلة يظل عملا سياسياً- اجتماعياً ذاتياً وليس علمياً. وغالبا ما ينحاز هذا التقسيم أيضا انحيازاً كبيراً، بتأثير ديناميكيات القوة للحركة الاستعمارية وبالتأثير الخارجي(راجع ميلهاوسلر Mühlhausler، ١٩٩٦ م ؛ وهيل Hill، ٢٠٠٢ م). ويكمن حل هذه اللعبة الرقمية في ألا نطمئن إلى صحة الأرقام والإحصاءات اللغوية، وأن نأخذ مأخذ الجد التسميات و التصنيفات الإثنولغوية التي يستعملها أولئك الذين يتحدثون لغة ما، كما فعلت على سبيل المثال، في حالة لغة الأُس السيبيرية. وتحذر اللغوية جين هيل Jane Hill (٢٠٠٢ م) من أن إحصاء أعداد المتحدثين بلغة ما يمكن أن يكون أمراً مريباً لاسيما حينما تتناقص هذه الأرقام وتصبح صغيرة جداً فعندما نستخدم المصطلح المزعوم "آخر المتحدثين" last speakers، فإننا نغامر بتطبيق مقاييس معيارية خارجية حول من يكون المتحدث الشرعي للغة أو من هو الفرد الذي ينتمي للمجتمع اللغوي. والخروج من هذا المأزق هو أن نأخذ على محمل الجد الأفكار و المعايير الخاصة بالمجتمع اللغوي وأن نضم إلى هذا النقاش (وفي أي مشروع توثيق آخر) متحدثين عاديين ومتحدثين من ذوي الذاكرة القوية وأفراد من المجتمع ينتمون إلى كل مستويات القدرة اللغوية.

(٣) التغير في لغة النافاهو Navajo language shift: يقول جوردون (Gordon ، ٢٠٠٥ م، ص٣٠٥) " إن المتحدثين باللغة كلغة أولى من بين تلاميذ الصف الأول يمثلون نسبة ٣٠٪ في مقابل ٩٠٪ سنة ١٩٦٨ م".

(٤) كلمات اللينابي: ديلاوير Delaware (ويتم تهجئتها أيضا Deleware). قبيلة لينابي الهندية، الموقع على الشبكة (http://www.delawaretribeofindians.nsn.us/) وقاموس

لينابي الناطق (http://www.talk-lenape.com/) .

(٥) سكان قبيلة ديلاوير لينابي قبيلة ديلاوير (لينابي) الهندية: الصفحة على الشبكة.

(٦) الاستعارات البيولوجية للغة: لمناقشة "موت اللغة" انظر كريستال (Crystal، ٢٠٠٠ م). ويمكن أن تجد مناقشة للاستعارات المستخدمة بصورة شائعة في كتاب الأصوات المتلاشية Vanishing voices (٢٠٠٠م، ص٥- ٧)، للمؤلفين نيتل Nettle ورومين Romaine. ويمكن أن تجد معالجة نقدية لمثل هذا الاستخدام في هيل (Hill، ٢٠٠٠م) و إرينجتون (Errington، ٢٠٠٣م) ، ويعطي كولبرت (Kolbert، ٢٠٠٥م) ، وهت (Hitt ، ٢٠٠٤ م) أمثلة على الاستخدام الشعبي لاستعارات "موت" اللغة. ومصطلح التهديد بخطر الانقراض endangerment والذي ينطبق عادةً على الأنواع البيولوجية المهددة بخطر الانقراض من شأنه أيضاً، حينما نطبقه على اللغات، أن يوحي بوجود تناظر خاطيء أو تشابه بين الأنواع من ناحية و الثقافات واللغات من ناحية أخري. وتقول اللغوية نورا إنجلند (Nora England، ٢٠٠٢م) إن استخدام مثل هذه الإستعارات يمكن أن يساهم في تزكية الإحساس بالتهميش margiralizatian أو "الآخر" في مجتمع لغوي صغير. وقد يجد بعض الناس أنه من المهين تشبيههم بالنباتات و الحشرات والحيوانات ذات الرتبة المنخفضة lower- order animals (England ، ٢٠٠٢م، ص١٤٢). ومع أن مصطلح اللغات المهددة بخطر الانقراض endangered languages يعد الآن مصطلحاً ذائعاً وعلى درجة من الكفاءة الوصفية وقد تبنته مجتمعات اللغات الصغيرة إلا أن إنجلند تدافع عن ضرورة التفكير في طريقة أخرى "للتحدث عن لغات مختفية منكمشة مهددة، تتجنب التشبيه البيولوجي الخاطيء و... تضع مناقشة الأمر في سياق مفهوم ومقبول في إطار العمل والوجود الإنساني الاجتماعي العام، سواءً على المستوي الفردي أم الجماعي". (England، ٢٠٠٢م، ص١٣٤).

(٧) يمكن إعادة إيقاظ اللغات النائمة أو الساكنة Sleeping or dormant languages . من بين مؤيدي هذه الرؤية روب إمري Rob Amery (١٩٩٥ م) و ليتل دو فيرمينو Litte Doe Fermino (انظر، ستيل Stille، ٢٠٠٠م) وويزلي ليونارد Wesley Leonard (٢٠٠٤م، ٢٠٠٥م).

(٨) انقراض النوع Species extinction (هوكسورث Hawksworth وكايلن أرويو Kaylin-

Arroyo، ١٩٩٥ م). لم يعرف بعد عدد من الأنواع (بورفيس Purvis و هكتور Hector، ٢٠٠٠م).

(٩) نسب الأنواع المهددة (ساذرلاند Sutherland، ٢٠٠٣م، و هيوود Heywood، ١٩٩٥م).

(١٠) تعليق على التوفا، (هاريسون Harrison، ٢٠٠١ م).

(١١) الأطفال و ليس الآباء هم من قد يقودون المسيرة فيما يتعلق بالتغير اللغوي (فلمور Fillmore، ١٩٩٩ م).

(١٢) يريد بعض متحدثي اللغات الصغيرة التحدث باللغات المسيطرة (لاديفوجد Ladefoged، ١٩٩٢ م).

(١٣) How to Keep Your Language Alive. "كيف تحافظ على لغتك حية" (هنتون Hinton، ٢٠٠٢ ؛ Green Book "الكتاب الأخضر"، هنتون و هالي (Hinton and halle، ٢٠٠١ م).

(١٤) توثيق الأنواع في وجه الانقراض، (انظر ويلسون ١٩٩٢ م، الفصل الثامن).

(١٥) سكان فانواتو وتشاد نقلاً عن CIA World Factbook "كتاب وكالة المخابرات الأمريكية للحقائق عن العالم" (وكالة المخابرات المركزية، ٢٠٠٥ م). العوامل التي تقف خلف التنوع اللغوي تذهب إلى ما وراء الحدود الجغرافية بين البشر (انظر نتل Nettle ورومين Romaine، ٢٠٠٠م، ص ٨٥).

(١٦) سكان ألاسكا الأصليون (تقرير لجنة سكان ألاسكا، ١٩٩٤). اللغات الألاسكية Alaskan languages (كراوس، krauss، ١٩٩٧م).

(١٧) الإحصاءات اللغوية في هذه الفقرة و الفقرة التالية مقتبسة من جوردون (Gordon، ٢٠٠٥ م).

(١٨) السكان يتعادلون Population level-off (براند Brand، ٢٠٠٥م).

(١٩) الثنائية اللغوية المستقرة. يتنبأ نموذج حديث حول موت اللغة بأن وجود تعايش مستقر للغتين متنافستين أمر بعيد الاحتمال. (ابرامز و ستروجاتس Abrams and Strogatz، ٢٠٠٣م).

(٢٠) طب الشمانيين Shamans' medicine (بلوتكين Plotkin، ١٩٩٣م).

(٢١) الدوائيات Pharmaceuticals (بوزي Posey، ١٩٩٠ أ).

(٢٢) ٨٧ ٪ من الأنواع النباتية و الحيوانية غير معروف (هوكسورث وكيلين أرويو Hawksworth and Kalin Arroyo، ١٩٩٥م) (انظر أيضاً ولسون Wilson، ١٩٩٢م).

(٢٣) المعرفة بقطعان الأسماك عند الماروفو (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ؛ يوهانيس وهفدنج Johannes and Hviding، ٢٠٠٠ م).

(٢٤) معرفة قبيلة السري بالسلحفاة المائية (فليجر وكليفتون وريجال Felger, Cliffton, and Regal، ١٩٧٦م ؛ نبهان Nabhan، ٢٠٠٣م).

(٢٥) Xoon! Western إخون الغربية (كيسلنج Kiessling، ٢٠٠٥م).

(٢٦) أساطير الخلق: توجد في كل الثقافات تقريباً وهي تتنوع بصورة كبيرة في سردها عن كيفية نشأة الكون، غير أن السرد الذي يحتوي على البط يعد نادراً. فلا يرد أي ذكر للبط عند ليمنج (Leeming، ١٩٩٤م)، بينما لا يسرد كتاب "كشاف موضوعات الأدب الشعبي" Motifindex of folk literature (تومسون Thompson، ١٩٣٢- ١٩٣٦م) إلا قصة واحدة، وهي القصة الملحمية لفنلندا والتي تسمى "كاليفالا" Kalevala وهي تحكي أن بطة أسطورية وضع بيضتها في حجر عذراء، و حينما قامت العذراء كي تمدد جسمها وقعت البيضة وانفتحت وأصبحت أجزاء قشرتها هي الأرض والسماء. "من نصف بيضة، النصف الأسفل/ ينمو القبو الأسفل للأرض، من النصف العلوي الباقي/ ينمو القبو الأ على للسماء " (ترجمة.كروفورد Crawford، ١٨٨٨م). اللغة الفنلندية ليست مهددة بخطر الانقراض ولكن منذ فترة الإصلاح الديني Reformation ودخول المسيحية اللوثرية إلى فنلندا، أصبحت الملاحم الشفهية قاصرة، إلى حد كبير، على منطقة كاريليا Karelia الجغرافية الصغرى.

(٢٧) أورارينا (أولاوسكي Olawsky، ٢٠٠٥م).